المنطلقات النظرية لظاهرتي التثاقف والانتشار الثقافي

. مقاربة أنثروبولوجية لأهم المدارس الشارحة–

أ. **عمر قبايلي** . جامعة تلمسان

يتناول هذا العرض الموجز لظاهرتي التثاقف والانتشار الثقافي تقديما توضيحيا من منظور أنثروبولوجي أعدّه رواد مختصون في منشورات مرجعية إذ تصب هاتان الظاهرتان في الاتصال الثقافي، حيث أنه وكما هو معلوم، فإن المعرفة والعلوم، أيّا كانت تسميتها، لا تبرز بطريقة عفوية وإنما تظهر بشكل تراكمي وتحصيل حاصل للقيم الثقافية والنظم الاجتماعية القائمة للأفراد؛ وعليه، فإن هذا التراكم المعرفي والعلمي يصنع لنفسه مذاهب واتجاهات ومدارس تتجانس مع معطيات الحياة مع الإشارة أن الإبداع في الأنثروبولوجيا وتقدمه يتوقف على المستوى الذي هي عليه النظريات والتطبيقات في المكان والزمان وهو الأمر ذاته في باقي العلوم الإنسانية والاجتماعية...

Résumé de l'article

Le présent article aborde deux phénomènes anthropologiques distincts : l'acculturation et la diffusion culturelle. L'approche est présentée d'une manière succincte et basée sur les travaux de trois chercheurs américains fondateurs dans la matière, à savoir :

Robert Redfield, Ralph Linton et Herskovits Melvil et le chercheur français Bastide Roger. Rappelons, enfin que l'acculturation et la diffuction culturelle constituent une autre forme de la communication culturelle.

مفهوم المثاقفة (L'acculturation):

نشأت كلمة "مثاقفة "منذ عام 1880 على يد ج. بوي (J.W Powel) والحرف اللاتيني السابق a في كلمة acculturation هي مشتقة من اللاتينية **ad** التي تدل على حركة تدل على الاقتراب من الشيء الموصوف(1) ومع ذلك كان لا بد من انتظار الثلاثينات من القرن العشرين لنشهد نهوض تفكير منهجي حول ظواهر تلاقي الثقافات، وقاد هذا التفكير الأنثروبولوجيون الأمريكيون ووضعوا تعريفا لفهم هذا المصطلح، حيث لم يعد من الممكن قبول أي استخدام غير دقيق له وفي هذا السياق نجد أن ذكر عملية التثاقف في الأنثروبولوجيا الثقافية يقود بالضرورة إلى تحديد نمط الثقافة المعني وكيفية نشوئها والعوامل التي قامت عليها، الخ... (2)

تعريف المثاقفة (L'acculturation):

من بين المعطيات المتناولة لموضوع المثاقفة فإننا نتوقف على أعمال أشهر الأنتروبولوجيين الأمريكيين وهم رالف لينتون (Ralph Linton) وروبيرت ريدفليد (Robert Redfield) و ميلفيل هيرسكوفيتش (Herskovits Melvil) الذين أعدوا إصدار مشهور باسم **مذكرة لدراسة المثاقفة** في عام 1936 اعتمدوا فيها التعريف الموالي: "المثاقفة هي مجموع الظواهر الناتجة عن احتكاك مستمر ومباشر بين مجموعات أفراد تنتمي على ثقافات مختلفة تؤدي على تغييرات في الأنماط الثقافية الأولية للجماعة أو الجماعات".(3) في حين يقول الأنثروبولوجيون البريطانيون بأن "

المثاقفة ليست سوى شكل من أشكال التغيير الثقافي الذي ينشأ أيضا لأسباب داخلية واستخدام المصطلح نفسه للتعبير عن ظاهرتي التغير الداخلي والتغير الخارجي يعني افتراض أن هذين التغيرين يخضعان إلى القوانين نفسها وهو أمر يبدو قليل الاحتمال".(4)

أما في فرنسا لا يمكن لمهتم بظواهر المثاقفة إلاّ الرجوع بشكل أو بآخر إلى أعمال روجيه باستيد (Bastide Roger) الذي تعمق في هذا الفرع المعرفي وانطلق من فكرة أنه لا يمكن دراسة الثقافي بمعزل عن (الوضع) الاجتماعي، وهو يرى أن النقص الكبير في الثقافوية الأمريكية حول الدراسات المتعلقة بالمثاقفة يكمن في غياب الربط بين الثقافي والاجتماعي في الثقافوية ويكمن خطر اختزال الوقائع الاجتماعية إلى وقائع ثقافية وبالعكس، يمكن القول أن في ما يمكن تسميته بـ "التوجه الاجتماعي" يكمن خطر اختزال الوقائع الثقافية إلى وقائع اجتماعية (5) وبالتالي علينا دراسة العلاقات الثقافية في داخل مختلف أطر العلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تعطي الأولوية لعلاقات الاندماج والمنافسة والصراع الخ... وعلينا أن نعيد وضع حقائق التلفيق والمزج الثقافي أي التمثل (assimilation) في إطار التنظيم أو عدم التنظيم الاجتماعي.

مقارنة حول ركائز المثاقفة عند المدراس الشارحة:

أ– في أعمال الأنثروبولوجيين الأمريكيين:

تشكل أعمال الأنثروبولوجيين الأمريكيين السالفين الذكر وهم رالف لينتون (Ralph Linton) وروبيرت ريدفليد (Robert Redfield) وميلفيل هيرسكوفيتش (Herskovits Melvil) مساهمة حاسمة وثمينة لأنها تخلق مجال بحث نوعي وتجهد في تنظيمه من خلال دعمه بأدوات نظرية كاملة. وتقترح تصنيفا للأدوات المتاحة بفضل التحقيقات التي تم إنجازها وتصنيفها للاحتكاكات التالية (6):

1- تبعا لوقوع الاحتكاكات بين المجموعات كلها أو بين سكان بأكملهم ومجموعات خاصة من سكان آخرين (البعثات التبشيرية، المستعمرين، المهاجرين..).

2- تبعا لكون الاحتكاكات ودية ومعادية.

3- تبعا لكون هذه الاحتكاكات تقع بين مجموعات تساوي في حجومها، بين مجموعات مختلفة الأحجام.

4- تبعا لكون هذه الاحتكاكات تقع بين مجموعات ثقافية ذات مستوى واحد من التعقيد أولا.

5- تبعا لكون هذه الاحتكاكات تنشأ عن الاستعمار أو الهجرة.

بعد ذلك يتم فحص حالتي الهيمنة والتبعية المتتابعة (subordination) والتي يمكن للمثاقفة أن تنشأ فيها، أي أشكال"اختبار" العناصر المقترضة أو المقاولة لـ "الاقتراض" وأشكال اندماج هذه العناصر في النموذج الثقافي الأصلي، وأخيرا الآثار الأساسية

الممكنة الناتجة عن المثاقفة بما في ذلك ردود الفعل. وهكذا نلاحظ بأن أصحاب هذه المدرسة يهتمون بتوضيح الاستمرارية الدلالية للثقافات بما في ذلك التغير.

ب–في أعمال الأنثروبولوجي الفرنسي باستيد:

لقد وضع روجيه باستيد نفسه في مستوى آخر من التفسير الأكثر تجريدا، فأدخل عام 1956 فكرة العلّتين (les deux causes) اللتين تدخلان في علاقة جدلية في أية عملية مثاقفة وهما **العلة الداخلية** و**العلة الخارجية**. ولم يكن باستيد أول من ذكر هاتين العلّتين لكن مساهمته الشخصية تكمن في تشديده على إثبات الفعل المتبادل الدائم بينهما. فالعلة الداخلية لثقافة معينة هي طريقة عملها الخاصة، أي منطقها الخاص بها. وقد تشجع أو تعرقل أو تمنع التغيرات الثقافية الخارجية. وبالتناوب فإن العلة الخارجية المرتبطة بالتغير الخارجي المنشأ لا تعمل إلا من خلال العلة الداخلية.

إنّ هذه العلة المزدوجة هي التي تفسر ظاهرة النتائج المتتابعة المذكورة أعلاه، وهناك سبب خارجي يسبب تغيرا في مرحلة ما من الثقافة، وهذا التغير تمتصه تلك الثقافة تبعا لمنطقها الخاص ويسبب عودة متتالية لعملية الضبط، وبتعبير آخر فإنّ العلّة الخارجية تحرض العلّة الداخلية لأن كل منظومة ثقافية تصاب في نقطة معينة ستعمل للبحث عن تجانس معين.(7)

وهكذا نرى أنّ جدليتي الديناميكيتين الداخلية والخارجية المذكورتين أعلاه تؤدي إلى بناء ثقافي جديد يمكن أن تهيمن فيه العلة الداخلية حينما يبقى التغير سطحيا، أو تنتصر فيه العلة الخارجية إذا كانت هناك محاكاة ثقافية.

الانتشار الثقافي (La diffusion culturelle):

مفاهيم عامة:

يعرّف رالف لينتون الانتشار الثقافي بأنه " انتشار عنصر ثقافي من جماعة أو مجتمع إلى جماعة أو مجتمع آخر" ، وهو عملية اجتماعية أكثر منه فردية(8)، وللانتشار الثقافي فضل مزدوج على تقدم البشرية، فقد ساعد على نمو الإنسانية ككل. وفي الوقت نفسه أغنى محتوى الثقافات الفردية، ودفع المجتمعات التي حملتها إلى الأمام في طريقها نحو الرقي والتقدم، كما ساعد الانتشار الثقافي على تعجيل تطور الثقافة ككل بإزالة الحاجة عند أي مجتمع إلى القيام بنفسه ووحده بإتقان كل خطوة من مجموعة خطوات أحد اختراعات(9). كما أنه، من جهة أخرى، لن يكون لأي اختراع كبير نفع أو فائدة إن لم ينتشر بين الناس والمجتمعات، كما أن جانبا كبيرا من معناه يتوقف على مدى انتشاره وشيوعية(10).

وقبل نشوء الأوضاع الحديثة للاتصال بين الشعوب، كان ظهور أي عنصر ثقافي جديد يستغرق قرونا للانتشار في المنطقة ذاتها، والتي لا يستغرق فيها اليوم أكثر من بضعة أشهر أو سنين على الأكثر(11).

ويرى (ادوار تايلور) أن هجرة العناصر الثقافية أو انتقالها واستعارتها من مجتمع إلى آخر عملية مقررة معروفة، نشاهدها بأعيننا في المجتمعات الحالية كما أن هناك أدلة قاطعة على انتقال بعض ملامح الثقافة في المجتمعات التاريخية التي لدينا عنها معلومات صادقة وأكيدة، وإن فليس ثمة ما يمنع من إمكان حدوث هذه الهجرات أو الاستعارات الثقافية بين المجتمعات القديمة الأولى، أو بين المجتمعات البدائية القائمة الآن، وأن هذه الهجرات تتمثل في استعارة بعض الفنون والصناعات، أو اقتباس بعض العادات، أو حتى اعتناق بعض الأفكار والمعتقدات والتطورات، وعلى العموم، فإن المدرسة الانتشارية ترى أنه يمكن رد التشابه الثقافي الذي نجده عند هذه الشعوب "بدائية كانت أم متحضرة، قديمة أم حديثة" إلى انتشار تلك العناصر الثقافية المشتركة بينها من أحد مراكز التقدم الثقافي (12).

إنّ إسهام الانتشار الثقافي في اغناء محتوى الثقافات الفردية ذو أهمية بالغة جدا، ومن المحتمل أننا لن نجد أية ثقافة من الثقافات القائمة اليوم مدينة لمخترعات اكتشفها أعضاء المجتمع الذي تنتمي إليه بأكثر من عشر ما تتألف منه هذه الثقافة.

يتطلب الانتشار الثقافي قواعد معينة لكي يتم، إذ من الواضح، مثلا أنه كما تقاربت الجماعتان اللتان تمتلكان نفس النمط الثقافي، كان ذلك أقرب إلى القول بأنهما اتخذتاه من نفس المصدر، أو أن أحداهما استعارته من الأخرى. كذلك من الواضح أنه كلما زادت الملامح المشتركة بينهما زادت احتمالات وجود اتصال بينهما عن طريق الانتشار(13)، وهنا لا بد أن نأخذ في الاعتبار طبيعة الأشياء الثقافية. فالأشياء المادية تنتشر بسهولة حيث يكون الاتصال سهلا وميسورا، لكن بعض القيود، فمثلا بنادق الصيد لا تنتقل عبر السهول، والملابس الثقيلة المصنوعة من الغراء لا تهاجر إلى المناطق المدارية. أما الأفكار الدينية فإنها تنتشر تسري في سهولة ويسر وكذلك حال القصص والأساطير فإنها تنتشر لأنه متاع خفيف، وعلى عكس ذلك نجد التنظيمات الاجتماعية التي تبدو أصعب الجوانب الثقافية جميعا على الانتقال والانتشار(14).

إنّ عرض عناصر جديدة على مجتمع ما يفترض، دائما وجود احتكاك مسبق، فالمجتمع الذي ينشأ معه مثلا هذا الاحتكاك قد يكون إما المصدر الأصلي للعنصر الثقافي الجديد، أو مجرد ناقل وسيط في عملية انتشاره، إلا أن طبيعة الاحتكاك ذات أهمية بالغة، خصوصا إذا علمنا أن مدى التنوع في عملية الاحتكاك بين مجتمعين أو ثقافتين واسع جدا(15)، فقد يكون هذا الاحتكاك على شكل علاقات وثيقة، يشترك فيها كل من المجتمعين سويا، وقد تقتصر على اتصالات تجارية متباعدة، أو علاقات من النوع الذي يحدث عندما يستقر فرد من أحد المجتمعين بين أفراد المجتمع الآخر.

ركائز الانتشار الثقافي:

يرى محمد السويدي بأن الانتشار الثقافي يرتكز على مختلف العمليات المنظمة التي تؤدي إلى تشابه الثقافات في مجتمعات مختلفة عن طريق آخر غير الاختراع، وتشتمل على ثلاثة نماذج متميزة من العمليات التاريخية التي تنتشر من خلالها الثقافة وهي كمايلي (16):

1- قد تنتشر الثقافة أحيانا خلال هجرة بعض الأفراد، أو الجماعات ويطلق على هذه العملية الانتشار الأول، مثل انتشار القانون العام البريطاني في بعض البلاد الإفريقية.

2- قد يظهر الانتشار خلال الاستعارة المباشرة أو ما يسمى بالانتشار الثانوي للثقافة، ويتضمن ذلك العناصر المادية من الثقافة.

3- وقد يكتفي بفكرة الانتشار وحدها بوصفها عملية أطلق عليها (كروبر) "الانتشار المثير".

ويرى أيضا بأن علماء الأنثروبولوجيا استخدموا مصطلح " الانتشار الثقافي" للإشارة إلى انتقال عناصر الثقافة من جماعة محلية إلى جماعة محلية.

مظاهر الانتشار الثقافي:

يعتقد عدد كبير من علماء الأنثروبولوجيا والاقتصاد أن الثقافة المادية والحضارية والاقتصادية أكثر ذيوعا وانتشارا من الثقافة اللامادية أو الثقافية التي تقوم على الأيديولوجي والعقائد.

وقد كان (سوركين) بعرض نظريته هذه من خلال انتقاده لنظرية (وليام أوجبرن) في "تغير الثقافة المادية أسرع من الثقافة اللامادية"، وقد أيد "سوركين" رأيه هذا بانتشار الديانات التبشيرية العالمية كالإسلام والمسيحية وانتشار الأيديولوجية الاشتراكية واستمرار القانون الروماني والنابليوني كمصدر القانون المدني، وهناك مثال آخر يلاحظ في التقبل العالمي لفلسفة التنمية الاقتصادية بالنسبة للدول النامية(17)، بمعنى أن الظاهرة سواء كانت دينية أو فنية أو عملية أو اقتصادية فإن فكرتها والدعوة إليها تصل أولا، ثم يبدأ تأثيرها على السلوك الجماعي وعلى الثقافة المادية بعد ذلك.

ولهذا يكون الانتشار الثقافي بالنسبة لهذه المجتمعات إضافة غير جوهرية لما هو موجود فعلا، ولا يكون بذلك عاملا له خطره مثل الانتشار في المجتمعات الأقل، وهي المجتمعات الريفية والبدوية وما شابهما. فالانتشار الثقافي بالنسبة للمجتمع الصناعي من طبيعة مختلفة عن الانتشار في المجتمعات الأخرى، فهو إما انتشار من هذا المجتمع إلى الخارج، أو انتشار من مراكز الصناعة والفكر إلى الأقسام الأخرى من المجتمع نفسه، فهو إذن لا يكون انتشارا نتيجة لتقابل ثقافتين مختلفتين(18).

يرى الأنثروبولوجي الفرنسي روجيه باستيد (Roger Bastide) أنه حينما تلتقي ثقافة بثقافة أخرى تحدث بينهما ظاهرة "الانتقاء "(Sélection) ويعود ذلك في رأيه إلى أن العناصر الثقافية ليست في مستوى واحد، فمنها ما هو مقبول ومنها ما هو مرفوض، وهو يرى أن الصور المادية للثقافة تقبل أولا، ثم تأتي بعد ذلك صور الثقافة الاقتصادية مثل طريقة الملكية والعمل بأجر إلخ. وأخيرا تقبل الصور الدينية، وهي في رأيه أكثر عناصر الثقافة مقاومة، ونجد هنا (باستيد) أقرب في آرائه في الانتشار الثقافي إلى (أوجبرن) منه إلى (سوركين).

في حين يقرر (رالف لنتون) أنه كلما كان الموضوع الثقافي أكثر تعقيدا أو تجريدا، كلما كان أصعب في تصوره، وهو لهذا يكون كذلك أبطأ في قبوله، وبالعكس كلما كان العنصر الثقافي الجديد ذا فائدة وأقل تعقيدا، كلما كان أكثر قبولا وأسهل في إدماجه في الثقافة الأصلية " إذا كانت الخاصية الجديدة تفي بالحاجة بصورة أنجع من الخاصية القديمة، وإذا كانت قابلة للتكيف مع النموذج العام، فإن الأفراد يتبنونها بشكل واسع، إلى أن تحتل مكانتها بين العناصر الثقافية العامة والعناصر الثقافية التخصصية، وفي الوقت نفسه، فإن الخاصية أو الخاصيات القديمة التي تحتل محلها الخاصية الجديدة، تفقد أنصارها بالتدرج، حتى تختفي في النهاية كليا من الثقافة(19).

مما سبق ذكره، فإنّه يستوجب علينا في هذه الدراسة الموجزة أن نوقف أيضا عند ملاحظة الأنثروبلوجي الفرنسي المعاصر جون لو أمسيل (Jean-loup

Amselle) حينما قال: "ليس هناك انقطاع حقيقي بين الثقافات المتواصلة مع بعضها تدريجيا، على الأقل في داخل حيز اجتماعي معيّن. فالثقافات الخاصة ليست غريبة أبدا عن بعضها البعض حتى عندما تتفاقم اختلافاتها لتترسخ بشكل أفضل ولكي تتميّز عن بعضها البعض، وعلى هذا الأساس فإّن الباحث يعتمد في أعماله مسعى يتّسم بـ "الاستمرارية" ويشجع البعد العلائقي الداخلي والخارجي للمنظومات الثقافية (20).

خلاصة القول أنّ التثاقف هو تثقف من الخارج يتضمن تلك الظواهر التي تنشأ عندما يحدث اتصال مباشر مستمر بين الجماعات والأفراد تنتمي إلى ثقافات مختلفة وينتج عن ذلك التفاعل تغيير في الأنماط الثقافية الأصلية في إحدى الثقافتين أو في كليهما أي أنّ ظاهرة التثاقف ترتبط بما يحدث للثقافة ككلّ بينما يتعلق الانتشار الثقافي بما يحدث للعناصر الثقافية أو أجزاء من الثقافة وهو ظاهرة تحمل أيضا ميزة الاتصال، وقد استخدم علماء الأنثروبلوجية هذا المصطلح للدلالة على انتقال عناصر الثقافة من جماعة محلية إلى جماعة محلية أخرى.

الإحالات

1–دونيس كوش: "مفهوم الثقافة في العلوم الإجتماعية" ترجمة د. قاسم حداد، دار النشر القصبة، الجزائر 1998، ص.64

2–سعاد علي شعبان: الأنثروبولوجية الثقافية لإفريقيا، منشورات معهد البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة، 2004، ص.53

3–دونيس كوش: م، س، ذ، ص64.

4–دونيس كوش: م، س، ذ، ص65.

5- دونيس كوش: م، س، ذ، ص.68
6- دونيس كوش: م، س، ذ، ص.72
7-رالف لنتون: دراسة الإنسان، ترجمة عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، 1964، ص.427
8-هاولز وليام: ما وراء التاريخ، ترجمة د. أحمد أبو زيد، دار النهضة، القاهرة، 1965، ص.358
9-هاولز وليام: م، س، ذ، ص359.
10- هاولز وليام: م، س، ذ، ص.428
11-أحمد أبو زيد: تايلور، دار المعارف، القاهرة، 1967، ص.69
12- رالف لنتون: م، س، د، ص،.429
13- هاولز وليام: م، س، ذ، ص.362
14- هاولز وليام: م، س، ذ، ص.363
15- Bastide Roger: Problèmes de l'entrecroisement des civilisations et leurs œuvres, P. U. F, Paris, 1968, Tome II,.
P315
16-محمد السويدي: مفاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991، ص.153
17-أحمد الخشاب: التغير الاجتماعي، مكتبة القاهرة الحديثة، مصر، 1971، ص.43
18-محمد عاطف غيث: تطبيقات في علم الاجتماع، الهيأة العامة للكتاب، 1979، ص.53
19- محمد السويدي: م، س، ذ، ص.161
20- Amselle Jean-loup : Logiques métisses. Anthropologie de l'identité en Afrique et ailleurs, Ed. Payot, Paris, 1990, P76.